العقل الفارسي في مقدمة كليلة ودمنة

The Persian Mind in the Introduction of *Kalīlah wa Dimnah*

Pemikiran Parsi dalam *Muqaddimah Kalīlah wa Dimnah*

محمد علي إبنيان *

سهيل محمد خصاونة **

ملخص البحث:

اختارت مقدمة كليلة ودمنة في عناوينها المختلفة أن يكون حديثها الأساسي عن العقل والفكر، فعرضت للعقل الهندي ببعديه: الفلسفي والسياسي، وكذلك صنعت مع العقلين الفارسي والعربي. في هذا البحث قام الباحثان باختيار ما يخص العقل الفارسي من حديث مميز في تعامله مع المعرفة، وسعيه الدؤوب وراء تحصيلها والقبض عليها، والإمساك بها بغض النظر عن التكاليف، وهو أمر لافت يُسجل بإعجاب لهذا الفكر في مرحلة مبكرة من الزمن، ويصلح للعرض والتقديم نموذجًا فريدًا للاقتداء، والتمثل في هذا الزمن نضعه هدية في صناديق البحث العلمي في عالمنا اليوم، وقد خلصت الدراسة إلى أن العقل الفارسي يظهر في مقدمة كليلة ودمنة محبا للمعرفة، ومغرماً بها، وحريصاً على تحصيلها بأغلى الأثمان، وصبوراً مضحياً بالنفس والمال، فكان له ما أراد وحصل أخيرا على المبتغى، ونال من عدوه من ثمّ على الرضى، وهذه دائما نتيجة الصدق والإخلاص.

الكلمات المفتاحية: كليلة ودمنة– العقل– الرؤيا– الفكر الهندي– العلم.

Abstract:

The introduction of *Kalīlah wa Dimnah* has chosen mind and thought as the main theme for its various titles. It highlights the Hindu mind in its two perspectives: philosophical and political. The same goes to the Persian and Arab minds. The authors of this research have wonderfully discussed how the Persian mind treats knowledge, its persistency in

* أستاذ مشارك، قسم العلوم الإنسانية، جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية–إربد، الأردن.

** أستاذ مشارك، قسم العلوم الإنسانية، جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية–إربد، الأردن.

acquiring, preserving and upholding knowledge. This is something that needs to be adored about this mind during the early days. It should be presented as an exemplary module in the present day and be considered as a treasure for scientific research. The study concludes that the Persian mind exists in the introduction of *Kalīlah wa Dimnah*, it is expressed as a form of love and passion towards acquiring knowledge by its priceless value, those who seek knowledge will find it. This has always been the fruit of trustworthiness and honesty.

Keywords*:* *Kalīlah wa Dimnah* - Mind- Thought- Hindu Mind- Knowledge.

Abstrak:

Di antara kepelbagaian pemikiran yang ditampilkan dalam *Muqaddimah Kalīlah wa Dimnah*, minda dan akal telah dipilih menjadi subjek utama, lalu dengan kreativitinya, ditonjolkan kepada pemikiran Hindu aspek-aspek falsafah dan politik, dan *Muqaddimah Kalīlah wa Dimnah* dibentuk dengan pemikiran Parsi dan Arab. Dalam kajian ini, bersandarkan kepada pemikiran Parsi, kedua-dua penulis telah memilih aspek yang berkaitan dengan pengetahuan, usaha berterusan dalam pencarian ilmu tanpa mengira jerih payah. Perkara ini amat menarik untuk diteliti serta sesuai dijadikan contoh untuk diteladani. Asimilasi pada zaman tersebut diumpamakan hadiah berharga bagi kajian ilmiah pada hari ini. Kajian ini telah menyimpulkan bahawa pemikiran Parsi yang didedahkan dalam karya *Muqaddimah Kalīlah wa Dimnah* ini adalah berteraskan cinta terhadap ilmu, kesungguhan mencarinya dengan jiwa raga serta harta. Penuntut ilmu yang bersungguh-sungguh itu akhirnya akan mendapat apa yang dicarinya, lalu dapat mengatasi lawannya dan selalunya itulah hasil kesabaran dan kejujuran.

Kata kunci: *Kalīlah wa Dimnah* - Pemikiran– Pandangan– Perspektif India- Pengetahuan.

مقدمة:

يعمد الفرس –كغيرهم من الأمم– إلى توصيل أغراضهم التهذيبية باستخدام وسيلتين اثنتين، هما: الوعظ والنصيحة والحكمة، أو الحكاية وهي المفضلة؛ لأنها أقرب إلى القلوب، وأدنى إلى النفوس؛ بما تدفعه من ملل يرافق العظات فيجثم على النفوس، فيفتك بصبرها، ويعيث بصفائها؛ فيزيد من همها وغمها وظلمة عتمتها.

أفرد الفرس للحكاية التهذيبية كتبًا خاصة، بوّبوا عناوينها، وحددوا أهدافها، فكانت الأخلاق والتعليم الهدفين الأساسيين المسيطرين على هذه المؤلفات التي اشتهر منها "كليلة ودمنة"، و"سندباد

نامة"، و"مرزبان نامة"، و"بوستان وكلستان"، و"جوامع الحكايات" و"لوامع الروايات"، و"بهارستان"، و "مقامات حميدي".[١]

يعد كتاب كليلة ودمنة من كتب الحكايات الفارسية المشهورة جدًا في العالم عامةً، والعالم العربي خاصةً، ويظنه كثيرون نتاجاً فكرياً عربياً، وأن مترجمه ابن المقفع شخصية عربية أيضًا؛ لكثرة تداوله في أدبنا، وعظيم تأثيره في فكرنا. ولعل مرجع مثل هذه الظنون عائد إلى أثر الحضارة الفارسية الواضح في الحياة العباسية التي تحتل جزءاً كبيراً ومؤثراً في تاريخنا العربي.

تفترض هذه الدراسة أن "كليلة ودمنة" في متنه الداخلي ومقدمته –التي هي محط اهتمام هذا البحث خصوصًا– قد صادف كثيرا من التغيرات والتبدلات عبر خط سيره الطويل المتعرج الخطر، والتي من أهمها خلع ردائه الهندي بترجمته على أيدي الفرس، ومن ثَمَّ خلع ثوبه المستعار مرة ثانية، على يد ابن المقفع الفارسي المستعرب، وكلما تعددت النقول لهذا الكتاب العالمي تعددت معه الأسماء وغيرها من مؤلفين وساردين حقيقيين أو ضمنيين. وشتان ما بين السارد والمؤلف الواقعي؛ فالسارد في فن المحكي ليس أبداً المؤلف، سواء المعروف أم المجهول، لكن هذا الدور يختلقه المؤلف ويتبناه، وهو ما قد يتيح أمامه فسحة تجعله يتململ بشكل يمنحه مجالاً واسعاً في التجلي والتحليق.[٢] ومع إيماننا هذا، نستمر في رحلتنا مع مقدمته؛ لأن اهتمامنا منصب على ما اتصف به العقل الفارسي عبر شهادة أحد أبناء الفرس وهي شهادة تستحق البيان؛ لأنها نموذج يصلح للعرض والاقتداء، حتى ولو كتبها أهلها واعتقدنا بتحيزهم. فالتأويل يختلف باختلاف شخصية الناقد ومواقفه الفكرية (الإيديولوجية) وباختلاف الفترات، ولكي يتم هذا لأي من عناصر العمل الأدبي فإنه يدرج في نسق ليس هو نسق العمل الأدبي وإنما في نسق الناقد المتلقي له.[٣]

إن مما ورد في هذه المقدمة يبقى شيئًا عامًا يستحق الكشف والبيان؛ لما يحويه من دروس وعبر، تتجاوز الأزمنة المحددة، والأمكنة الضيقة، وهو عين ما اتصف به الكتاب بكامله، ولم يقتصر على المقدمة خصوصًا.

خصوصية مقدمة "كليلة ودمنة"

تشكل المقدمة جزءاً من الموضوع، وليس من السهل التسامح بحقها أن تتقدم، فموضوع بلا مقدمة موضوع ناقص ابتر، وأمر ليس مألوفًا، ولربما تطغى المقدمات على المواضيع، وتسيطر وتفرض شهرتها كما هو حاصل في مقدمة ابن خلدون الشهيرة.

يريد صاحب المقدمة –أي مقدمة– من مقدمته أن تقدم خدمة ما، فهو يريدها أن تبين، أو توضح أشياء تتعلق بالبحث، فمثلاً نص صاحب مقدمة "كليلة ودمنة" (بهنود بن سحوان) المعروف

بعلي بن الشاه الفارسي على السبب الذي من أجله عمل (بيدبا) الكتاب، كما علل الدافع من وراء مجيء الكتاب على ألسن الطير والبهائم، وذكر السبب الذي من أجله أنفذ (أنوشروان) رأس أطباء فارس إلى بلاد الهند.

بدت مقدمة "كليلة ودمنة" رصينة جادة، وليست إعلانًا تجاريًا مغريًا، ولا شهادة زور مرخصة،[٤] كما هي بعض مقدمات اليوم التي يكتبها ذوو الشهرة الفاقعة، والأسماء اللامعة، والهالات الواسعة، ممن يراد لأسمائهم وتواقيعهم أن تكون رمزًا لضمان الجودة والنوعية.

يستشعر القارئ لمقدمة "كليلة ودمنة" خصوصية مميزة؛ لكونها محاولة مبكرة للحديث عن معالم نظرية في نقد العقول وإجراء التفاضل بينها، فقد طافت بالعقل الرومي، والعقل الهندي، والعقل الفارسي، والعقل العربي –الذي هو هدف ابن المقفع الأساسي في ترجمته للكتاب، وعلة بعثه الأولى من مرقده كما يبدو لنا– ولذلك جال بالعقول السابقة؛ ليبدو أنه في سياق حديث عام عن العقول –وهو الحصيف الحاذق– فظهر حديثه عن العقل العربي حديثًا عاديًا منسجمًا في سياق مناسب عن العقول ونقدها.

عملت البنية اللغوية لكتاب "كليلة ودمنة" –وهي أداة مؤثرة ووسيلة ناجحة– على الوصول إلى المعنى الذي أراد المبدع بلوغه، فالبنية اللغوية التي نقل ابن المقفع فيها كتاب "كليلة ودمنة" انسجمت –إلى حد بعيد– مع موضوعات الكتاب وروحها، لأن للغة روحاً وهذه الروح هي التي تمثل المرآة الحقيقية لأية أمة، فهي مخزن الفكر وأداته وشكله.[٥]

لقد تميزت بنية مقدمة "كليلة ودمنة" بأنها ذات عناوين أربعة، كتب (بهنود بن سحوان) المعروف بعلي بن الشاه الفارسي ثلاثة منها، وكتب عبد الله بن المقفع العنوان الرابع، وهذه المقدمات جميعها متصلة الموضوع، تبحث في العقل وأهميته على الطريقة الفارسية، التي تؤمن بالحس، وتحكم العقل قبل المشاعر في مواجهة الأحداث،[٦] مع العلم أن التمييز بين عقول الناس، ونظمهم الفكرية، بناءً على الأعراق والأجناس مسألة قديمة حديثة، فبعض المفكرين الغربيين قسموا شعوب العالم قسمين، سموا القسم الأول الجنس الآري، وسموا القسم الثاني الجنس السامي، بل وصل الأمر بالمستشرق (أرنت رينان) ١٨٣٢–١٨٩٢م إلى أن يوظف نظرية الجنس في النظام العقلي المعرفي، جاعلاً التفوق للجنس الآري على السامي، بل تعداه تلميذه (ليون غوتييه) إلى اتهام العقل السامي بعدم القدرة على رؤية الأشياء بترابط وانسجام، وهو أمر – وللأسف– ردده بعض المستغربين العرب.[٧]

ومع ذلك، فإن هذا البحث مشغول بالجزئية التي تهتم بالعقل الفارسي تحديدًا وكما أظهرته مقدمة "كليلة ودمنة"، وسر الانشغال به هو تلك الصورة اللافتة الرائعة التي تعامل بها هذا العقل أثناء رحلته الخطرة في البحث عن كتاب "كلية ودمنة"– كتاب الحكمة الهندية– وحبيس خزائنهم الملكية

تحديدًا –خوفًا من وصوله إلى الفرس خصوصًا، ولكن الفرس وصلوا إليه باقتدار وتمكن صنعه بفضل الإرادة والتصميم الفارسي، والإنفاق المادي السخي من دون حدود وهما إكسير النجاح وأساس الفلاح وروح العلم والتقدم.

العقل وأهميته في حياة الإنسان

جاء في كتاب "كليلة ودمنة" في باب "الجرذ والسنور"، وعلى لسان الجرذ بعدما شعر أن الأخطار محدقة به من كل جانب قوله: (هذا بلاء قد اكتنفني، وشرور تظاهرت عليّ! ومحن قد احاطت بي، وبعد ذلك، فمعي عقلي، فلا يفزعني أمري، ولا يهولني شأني، ولا يلحقني الدهش، ولا يذهب قلبي شعاعًا؛ فالعاقل لا يفرق عند سداد رايه، ولا يعزب عنه ذهنه على حال، وإنما العقل شبيه البحر الذي لا يدرك غوره).[٨]

يعبر هذا الحديث عن قيمة العقل وفرط أهميته وبالغ ضرورته، وشرط حضوره الدائم في حياة الناس، فهو ميزة الإنسان عن الحيوان، بل هو أساس سعادته كما يقول "أرسطو" الذي يرى أن جودة الرأي، وسلامة الفكر، من شروط السعادة الموجودة في البدن.[٩]

وينبغي على من يريد تحقيق تلك السعادة، أن يعمل على تقوية الجانب الموهوب من العقل بكثرة التجارب والأدب والنظر والاعتبار، وهو ما يسمى بالجانب المكسوب من العقل؛ لضرورة ذلك في حيوية العقل ونشاطه، والذي من دونه يضوي العقل ويضمر، ويعود الإنسان أشبه ما يكون بالحيوان.[١٠]

ولئن شبه (فرويد) في العصر الحديث العقل بعمارة كبيرة، لا يسكن الواحد منا إلا في غرفة واحدة في الطابق السفلي منها؛ فإنما يشير بهذا التشبيه المؤلم إلى مقدار الهدر الإنساني لمقدرات العقل البشري وإمكاناته،[١١] وهو تشبيه يتضمن دعوة إلى شغل أكثر من غرفة من غرف العقل الكثيرة، سعياً وراء تحقيق السعادة التي تحدث عنها (أرسطو) قبلاً. إن النظر في العقل الإنساني، وبحث شؤونه، مسألة حيوية وحساسة، وهي من مسائل الاهتمامات البشرية قديماً وحديثاً ومستقبلاً.

إن الإنجاز العقلي الفارسي واضح في مقدمة "كليلة ودمنة"، فالتعقل هو الذي قاد إلى حضور الحياة وهجرة الموت في غير موقع، وهو ما يعزز مفهوم الفكرة التي ينطلق منها هذا البحث، فقد تجلت حيوية العقل في تجاوز المحن وتجنب الشراك، الأمر الذي يدعو إلى ضرورة النظر في التراث الفكري الفارسي والتدقيق العميق بمفرداته التوعوية المشحونة بمظاهر العقل وحسن الأداء التكيفي مع كل طارئ بهدوء وحكمة، وهنا ينبغي الإشارة إلى ضرورة عدم الحكم المتسرع على التراث لقدمه، بل ربما نجد فيه ما هو خير لنا، إذ ربما أخطأ بعض النقاد العرب والمسلمين المحدثين حين نظروا إلى تراثهم الأدبي والنقدي نظرة هدم ودونية واحتقار.[١٢]

ويقف هذا البحث عند حلقة مميزة من حلقات الاهتمام بقضية العقل والموازنة بين أنواعها، والتي ربما تكون هي أول حديث مسجل رسميًا عن العقل، ومدون بقلم مترجم حكيم بحجم ابن المقفع، كان يكتب بعقل حاضر عن العقل الغائب، وبهذا ينبغي القول هنا بأن الأخذ المتوازن عن القديم لا يعني العيش في منظومته، وهذا يعني التفريق بين مفردات القديم والتمييز الواعي بينها، وعلينا أن لا نأخذ كل ما هو قديم لمجرد أنه كذلك، وأن لا نقبع تحت منطلق الرغبة التي قد تصل إلى حد التقديس أحياناً للقديم بما يبعثه من شعور عميق في حب التعامل معه.[١٣]

إن أسباب البحث عن العقل والعقلاء التى دفعت أول ما دفعت (بيدبا) الفيلسوف الهندي، هي ذاتها بالتأكيد التى دفعت (ابن المقفع) إلى تبنيها فيما بعد، فاستدعى"كليلة ودمنة" من مرقده، وهي ذاتها التى تدفعنا اليوم –في زماننا هذا المجنون الصاخب– لنكتب عن هذه المسألة، ونأزر إلى هذا الكتاب الخالد "كليلة ودمنة" كما تأزر الحية إلى جحرها، متسائلين: هل هذا هو وقت الرجوع والمراجعة، وهل هذا هو وقت البحث بالعقل، أم البحث عن العقل؟ فتعليل الشيء هو من مظاهر العقل والعقلانية، لذا نعمد في التعامل مع النص إلى مبادئ ذات منحى عقلي يعتمد مبدأ الخصوص والعموم، ومبدأ النسخ بكل ما يعنيه ذلك من إقرار بعقلانية الفهم وتاريخية النص.[١٤]

"كليلة ودمنة" بين الرؤيا والتشكيل

عندما يشعر الإنسان عمومًا بعدم الرضا عن وجوده، أو عن وجود العالم من حوله، فإنه يلجأ للتغيير، أو التكيف بطرق شتى، ووسائل مختلفة؛ سعياً لإعادة التوازن، وخلاصاً من عدم الاستقرار، فالإنسان الفنان، وسيلته الفن في تحقيق ذاته، وإكمال نواقصه؛ لأن للفن دوراً بيناً في صنع الانسجام، وتحقيق التكامل للنفس البشرية، وتحريرها من قيود الزمان والمكان والإنسان، وقد أصاب (شوبنهور) عندما قال: الفن خلاص من الأوهام.[١٥]

وقد راح المبدعون إلى عالم التأليف بالخيال المستمد من الواقع لإدراكهم حقيقة أن الخيال الفني والأدبي يثير التداعيات المختلفة في النفس، لأنهم وجدوا في الخيال استثماراً نابضاً بالمعاني المختلفة كلها، فالنصوص لا تتكلم بالمعانى العادية للكلمات؛ بل تتجاوز حدود العادي والمقيد إلى ما بعد العادي المحرر، فليس بالضرورة أن يؤكد الواقع أن النص ينجو من التدمير الفوري، بل ويؤكد أيضاً أن النص في كينونته الفعلية كنص له وجود في العالم، فهو مفتوح الأبواب والنوافذ على الراغبين بتلقي هذا النص.[١٦]

وعليه، فإن كتاب "كليلة ودمنة" كاملا– بوصفه نموذجًا عالميًا فريدًا في الحكمة الفنية الرائعة– يقع في دائرة الخلاص الفني من القلق الاجتماعي، إذ عبره حقق (بيدبا) فيلسوف الهند العظيم راحة وطمأنينة وقدرة لافتة على التأقلم، بعد أن حاصره زمانه، وضاق عليه مكانه، وتسلط عليه سلطانه.[١٧]

إن"كليلة ودمنة" هو ذات الوصفة التي استعملها ابن المقفع، عندما شعر بحصار الزمان والمكان والإنسان، ففي زمن الخليفة المنصور الذي أسس الدولة، وأرسى أركانها، وآمن بأن تثبيت الدولة، وحفظ سلطانها، لا يكون إلا بالقوة والبطش، وإراقة الدماء، وقد ضاق الزمن، وغاب العقل، وفقدت الأناة والتروي، وحل العنف والتسرع، فشعر عندها (ابن المقفع) بما شعر به (بيدبا) من قبل؛ فاستعار" كليلة ودمنة" منه بعد أن أخضعه إلى عمليات تجميلية تجعله مقبولاً لعصره، ومنسجماً مع واقعه وظرفه، وهكذا نفخ فيه من روحه، فإذا هو قائم يسعى.

إن من المؤكد أن أكثر من دَفَعَ (ابن المقفع) لتبني "كليلة ودمنة"، وهي أمور قاسها على نفسه وواقعه، ورأى فيها تقاربًا أحيانًا، وتطابقًا أحيانًا أخرى. وسواء أكان (ابن المقفع) مترجمًا أم مؤلفًا لهذا الكتاب، فإن مضمونه يعكس ما يؤمن به و يريد أن يقوله على كلتا الحالتين، وهو بالتأكيد تلبية رغبة دفعت الحاجة إليها. فتركيزه على العقل، وجولته الواسعة في الحديث عنه بحنكة وتمكن، أظهره عملاً تطبيقيًا رائعًا، ونموذجًا فنيًا لافتًا في تحويل الأفكار النظرية إلى أفكار تطبيقية موظفة بصورة إيحائية غاية في الدقة والعناية والاحتراس، فى بيئة تعمق في دراستها، وسبر أغوارها، فكانت أحوج ما تكون إلى هذا اللون من الحديث، لأنه ينبغي أن تكون للفن قيمة في هذه الحياة، ولا يكون هذا إلا بوجود فن ناضج مكتمل يعبر عن وجدان وفكر، فالحقائق الموجودة في هذا الكون لا يستطيع المرء تحويلها إلى فن إلا إذا تملكها، من هنا كان هذا الأمر هو السر في الإبداع الفني؛ لأنه يعطي للمبدع المقدرة على حرية التصرف بالأشياء التي يمتلكها، فيجعل من الممكن مستحيلاً ومن المستحيل ممكناً، ومن العام خاصاً ومن الخاص عاماً.[١٨]

الفكر الهندي مطلب العقل الفارسي وغايته

يعد العقل مصدر الفكر المعرفي أو الفلسفي عند الإنسان، وهو جزء من مغامرة الإبداع لديه، وهو الوعاء الذي ينطلق منه الخيال وينمو فيه ويتطور، والخيال المبدع يعمل على تجميع العناصر المتضادة والمتضاربة وتوحيدها ضمن ما يسمى بعملية تجميع عناصر الإدراك وتنظيمها شعراً أو نثراً.[١٩]

وقد تجلت المظاهر العقلية المرتبطة بإبداع الخيال الخلّاق بعد أن تصالح العقل الهندي السياسي ممثلاً بالملك (دبشليم) مع العقل الهندي الفلسفي ممثلاً بالفيلسوف (بيدبا)، وأثمر هذا التصالح كتاب "كليلة ودمنة"، والذي اشترط (بيدبا) الفيلسوف على الملك حفظه في خزانته الخاصة، فلا يخرج خارج الهند؛ فيصل إلى بلاد فارس تحديدًا.[٢٠]

لم يكن هذا الشرط من قبل (بيدبا)– على الملك– وهو احتكار واضح للمعرفة، وجحود بين لعالمية الفكر والثقافة– ليثبط العقل الفارسي عن طلب الحكمة الهندية، والسعي في تحصيلها، بل كان دافعًا راسخًا ومحفزًا قويًا لاقتفاء أثر هذا السفر العظيم، والحصول عليه بأي طريقة كانت، والغاية تبرر

الوسيلة كما يقال، خصوصًا أن (أنو شروان) وصف الكتاب بأنه: (أصل كل أدب، ورأس كل علم، والدليل على كل منفعة، ومفتاح عمل الآخرة وعلمها، ومعرفة النجاة من هولها).[٢١]

وهذه الشهادة من جانب (كسرى انو شروان) تؤكد طبيعة العقل الفارسي المنفتح، والمؤمن بقيمة المعرفة، وضرورة الاعتراف بجهد الآخرين، كما أن عزو الفضل إلى أهله مسألة لاتصدر إلا عن المخلصين العقلاء وهذا هو عين ما يتمتع به رأس الدولة وقائدها (أنو شروان) فهو ملك رزقه الله من العقل أفضله، ومن العلم أجزله، ومن المعرفة أصولها ومن الأفعال أسدّها، ومن البحث عن الأصول والفروع أنفعه، وبلغه من فنون اختلاف العلم، وبلوغ الفلسفة ما لم يبلغه ملك قطُّ من الملوك.[٢٢]

ولأن هذه الشهادة بحق (أنو شروان) حقيقة واقعة، فقد آمن بقيمة كتاب "كليلة ودمنة"، وجعله هدفًا لا بد من تحصيله، معتبرًا ذلك مهمة وطنية، وواجبًا قوميًا يستحق الاهتمام وحشد الطاقات، ولذلك أمر وزيره (بزرجمهر) أن يبحث عن الرجل المناسب لتأدية هذه المهمة الحساسة، على أن تسري في عروقه الدماء الفارسية الخالصة أولاً، فضلاً عن صفات العقل والتدبر والتفكير والحرص على طلب العلم، والأدب باجتهاد ومواظبة، بجانب اتقان اللسانين الهندي والفارسي، وقد اجتمعت كلها أخيراً في الطبيب (برزويه).[٢٣]

العلم والمال في ميزان العقل الفارسي

قبل أن يغادر "برزويه إلى بلاد الهند لتنفيذ المهمة" رسخ (كسرى أنو شروان) في ذهنه أموراً يحتاج إليها الإنسان الساعي في طريق البحث العلمي وشعابه منها: الجد، والسرعة، والإتقان، واتخاذ القرار المناسب، بما تمليه الظروف، ومنها –وهو أهمها وأخطرها– المال الكافي، وهو روح البحث العلمي وأساسه قديمًا وحديثًا، حيث أوصاه قائلاً: خذ معك من المال ما تحتاج إليه، وعجّل ذلك، ولا تقصّر في طلب العلوم –وإن أكثرت فيه النفقة– فإن جميع ما في خزانتي مبذول لك في طلب العلوم.[٢٤] وهذا أمر يسجل بحق للفكر الفارسي السياسي الذي أرخص المال في سبيل العلم وتجاوز المشكلة المالية التي هي مقتل البحث العلمي قديمًا وحديثًا، وهكذا انطلق (برزويه) الطبيب "المتطبب" إلى بلاد الهند، يؤدي مهمته بثقة وإحكام مستندًا إلى قاعدتين ضروريتين يحتاج إليهما أصحاب المهمات الصعبة، وهما: ثقة المسؤول والتغطية المالية غير المحددة، وتعلّم الطب وكأنه لا يعلم عنه شيئًا؛ ليستر حاجته، ويخفي هدفه الأساسي الذي من أجله وصل إلى الهند.

العقل الفارسي في مواجهة العقل الهندي

اصطفى (برزويه) –بما أوتي من حكمة وتأنٍ– من بين علماء الهند خليلاً صفيًا، جعله محط مكنوناته، ومدفن أسراره، ولشدة وثوقه به؛ أفشى له بسره العميق، وحقيقة أمره، لكن الهندي فاجأه عندما أعلمه أنه مكشوف لديه، وأن قدومه إلى الهند ،كان بالمكر والخديعة، وأن هدفه هو سلب كنوز الهند العلمية النفيسة، والعودة بها إلى فارس، وإسعاد (أنو شروان) بها.[٢٥]

لقد كانت لحظة عصيبة حقًا، تعرض فيها العقل الفارسي لامتحان حرج قاسٍ، إذ شعر أنه في ورطة حقيقية، ومأزق ملبس؛ فقد كان بإمكان الهندي أن يقوده إلى السجن، ويدفعه إلى الاعتراف بلسانه، ولكن، بمقدار هول هذه المفاجأة،كانت ردة الفعل مفاجئة أيضًا، فحفظ السر عند الهنود "رأس الأدب"،[٢٦] والهندي مسحور بالفارسي لحكمته، ودقة تصرفه، وقدرته الفائقة على كتمان سره، رغم طول مكوثه في البلاد، وهو بالوقت ذاته سعيد كل السعادة؛ لأن (برزويه) وثق بعقله الراجح، وعدّه موضع سره دون سائر الرجال، وهذه من أهم صفات العاقل عند الهنود،[٢٧] ولهذا كله وافق الهندي على مساعدة (برزويه) في مطلبه، وإنفاذ مهمته الصعبة، قائلاً له: (الله يحفظك، ويعينك على ما قدمت له، فمصادقتك تسعف بحاجتك، وتشفع بطلبتك، وتعطى سؤلك).[٢٨]

ولنا أن نتوقف هنا قليلاً عند درس أخلاقي مشترك بين الفكرين؛ الهندي والفارسي الذي يقوم على تقديس الصداقة واحترام معانيها وكل متعلقاتها، ولعله هو المحور الأساس الذي حكم مجمل الأحداث التي جرت بين الهندي والفارسي؛ إذ لم يكن الفارسي ليبوح بخفي سره للهندي، لولا شعوره بعظيم ما يربطه من صداقة مع هذا الهندي، وهو ذات ما استشعره الهندي تجاه الفارسي، فمشاعرهما تقاطعت في نقطة واحدة، وعندها التقيا، فكان الإخلاص هو الثمرة المشتركة التي قطفها الاثنان، وهو ما دفع بالهندي من ثمَّ إلى معاونة الفارسي، على تحقيق هدفه المعرفي السامي، في ترجمة كتاب "كليلة ودمنة" رهين الخزائن الملكية الهندية، وحبيس الفكر الهندي المحتكر للمعرفة والثقافة، وهو بعمله هذا، أعاد للفكر الهندي اعتباره، ورد للثقافة عالميتها، وصحح نظرة فيلسوف الهند العظيم القائمة على احتكار المعرفة، عندما طلب من الملك حفظ الكتاب في خزائنه الخاصة، مع الحرص على ألا يصل إلى بلاد فارس خاصةً.

لقد قام الهندي بمساعدة برزويه الفارسي دونما شعور بأنه يخالف قانوناً، أو يرتكب محذورًا يمس وطنه، بل كان في حقيقة أمره يرد الاعتبار لوطنه وثقافته، ويزيل عن وجهها برقع الأنانية والانكفاء الضيق على الذات، ويؤكد –من ثمَّ– أن الفرس والهنود يلتقيان بالنسب والأصل، كما التقيا في الفكر والثقافة، وأن لهم جميعا سبقًا يسجل لصالح كل منهم عندما حكموا عقولهم فكتبوا بأقلامها وسطروا بمدادها روح الحكمة، فاكتسبت كتاباتهم صفة الديمومة والأبدية، فالقلم عقل قائم بالفعل، لأنه وجد

عن موجود عاقل، وهو كالشعاع الصادر عن الشمس، فكان صدوره (القلم) عن مركز العقل يتأثر به بصورة فاعلة أو بصورة أخرى، وهو ما يمكننا أن نحدد القيمة لهذه الكتابة أو لتلك.[٢٩]

إن تمازج الفكرين الفارسي والعربي أدى إلى ولادة نتاجات إبداعية كانت حاضرة في الماضي وما زالت وستبقى خالدة خلود الحياة، لأن الإبداع هو الصدق والصدق هو الحرية،[٣٠] وقد انعكس كل ذلك على وعي الأدب في "كليلة ودمنة".

الخاتمة:

جال هذا البحث في أرجاء مقدمة كتاب "كليلة ودمنة" الرحبة ووقف متمعنًا في مواضيعها العميقة الهادفة وأذهلته بحق روح الوقار التي تغشاها وتلف عباراتها وتتحكم في إيماءاتها وإشاراتها.

وانتهى إلى اختيار قضية لافتة من قضايا هذه المقدمة وهي التي تتعلق بطبيعة العقل الفارسي وأسلوبه في التعامل مع ظروف الحياة ومسائلها المختلفة المتشعبة، وهي طبيعة لم يزل العقل العالمي اليوم بحاجة ماسة إليها وسيبقى، إذ إن التأني والتدبر وحب المعرفة والسعي وراءها وبذل المال في سبيلها من دون بخل أو تباخل هي أمور يحتاج إليها عقل عالمنا الحديث اليوم أشد الحاجة بعد أن فتك غيابها بنا فتكاً.

يظهر العقل الفارسي في مقدمة "كليلة ودمنة" محبًا للمعرفة مغرماً بها حريصاً على تحصيلها بأغلى الأثمان، صبوراً مضحياً بالنفس والمال، فكان له ما أراد وحصل أخيرًا على المبتغى، ونال من عدوه من ثمَّ على الرضى، وهذه دائما نتيجة الصدق والإخلاص.

هذا هو مجمل ما أراد هذا البحث بيانه وإظهاره والتذكير به في زمن يئن تحت سياط التسرع والعجلة والطمع والأنانية وإن بدا في الظاهر طاهراً عفاً وناسكاً متبتلاً وقوراً.

هوامش البحث:

[١] بدوي، أمين، **القصة في الأدب الفارسي**، (بيروت: دار النهضة العربية،١٩٨١م)، ص٣٠١.

[٢] Kayser (Wolfgang), "Qui raconte Le roman" in "poetique du recit", Paris, Seuil ١٩٧٧, P.٧١، نقلاً عن: رولان بارت وآخرون، **طرائق تحليل السرد الأدبي**، (الرباط: منشورات اتحاد كتاب المغرب، سلسلة ملفات، ١٩٩٢م)، ج١، ص٩٢.

[٣] رولان بارت وآخرون، **طرائق تحليل السرد الأدبي**، (الرباط: منشورات اتحاد كتاب المغرب، سلسلة ملفات، ١٩٩٢م)، ج١، ص٤٠.

[٤] **مجلة أفكار**، عمان، ع١٣٨، كانون أول، ١٩٩٩م، ص٥٠.

[٥] Schaff, Adam, "Langage et connaissance, ed Anthropos", Paris, pp ١٨.

نقلاً عن، يوسف، أحمد، "فلسفة اللغة: دراسة في النشأة والأصول"، **مجلة علامات في النقد**، (الجزائر: مج٧، ج٢٨، ١٩٩٨م، ص٣١٨.

[٦] مظهر، إسماعيل، **تاريخ الفكر العربي**، (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت)، ص١٩٧.

[٧] محمد، يحيى، **نقد العقل العربي في الميزان**، ط١، (بيروت: دط، ١٩٩٧م)، ص٤٦-٤٧.

[٨] انظر: بيدبا، **كليلة ودمنة**، ترجمة: عبد الله بن المقفع، (عمان: مكتبة المحتسب، د. ت)، ص٢٤٦.

[٩] عبد الرحمن، سامية، **القيم الأخلاقية**، ط١، (القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٩٢م)، ص٦٦، ص٧٠.

[١٠] الجابري، محمد عابد، **بنية العقل العربي**، ط١، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦م)، ص٣٣-٤٣، نقلاً عن: ابن وهب، **كتاب البرهان في وجوه البيان**.

[١١] كمال، علي، **باب العبث بالعقل**، ط١، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٩٤م)، ص١٧.

[١٢] حمودة، عبد العزيز، **المرايا المقعرة: نحو نظرية نقدية عربية**، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ع٢٧٢، ٢٠٠١م)، ص٤٦.

[١٣] السامرائي، فاروق، "التوازن في الفكر التربوي الإسلامي"، **أبحاث اليرموك- سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية**، الأردن، مج١٣، ع٤، ١٩٩٧م، ص٨٩.

[١٤] الغزي، تامر، "التصوف الإسلامي (العبارة تحاصر الإشارة- عقلانية الاختلاف):كتابات معاصرة"، **مجلة الإبداع والعلوم الإنسانية**، مج٨، ع٣٠، ١٩٩٧م، ص٧٩.

[١٥] عبد الرحمن، سامية، **القيم الأخلاقية**، ص٢٣و ١٠٢و١٠٣.

[١٦] سعيد، إدوارد، **العالم والنص والناقد**، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، (بيروت: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م)، ص٣٩.

[١٧] خوجية، غالية، "تجريبية الاحتمال وقصص (دهشة الساحر)"، **مجلة علامات في النقد**، الجزائر، مج١٠، ج٤٠، ٢٠٠١م، ص٤٢١.

[١٨] السيد، علاء الدين رمضان، "البويطيقيا (فن لغة الصياغة الشعرية)"، **مجلة علامات في النقد**، الجزائر، مج٧، ج٢٨، ١٩٩٨م، ص٢٦١.

[١٩] الرباعي، عبد القادر، **في تشكل الخطاب النقدي: مقاربات منهجية معاصرة**، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م)، ص٤٣.

[٢٠] بيدبا، **كليلة ودمنة**، ص٣١.

[٢١] انظر: السابق نفسه، ص٤٤.

[٢٢] السابق نفسه، ص٤٣-٤٤.

[٢٣] السابق نفسه، ص٤٤.

[٢٤] السابق نفسه، ص٤٥.

[٢٥] السابق نفسه، ص٤٧.

[٢٦] السابق نفسه، ص٤٩.

[٢٧] السابق نفسه، ص٤٨.

[٢٨] انظر: السابق نفسه، ص٤٨.

[٢٩] إبراهيم، عبدالله، **السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي**، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م)، ص٢٥.

[٣٠] الصائغ، عبد الإله، **الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية: الحداثة وتحليل النص**، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩م)، ص٤٦.

المراجع: References

Abd al-Raḥmān, Sāmiyah, *al-Qiyam al-ʾAkhlāqiyyah*, ١st edition, (al-Nahḍah al-Miṣriyyah, ١٩٩٢).

Al-Ghaziyy, Tāmir, "al-Taṣawwuf al-ʾIslāmiyy (al-ʿIbārah Taḥāṣur al-ʾishārah al-ʿaqlāniyyah al-Ikhtilāf): Kitābāt Muʿāṣirah", *Majallah al-ʾIbdāʿ wa al-ʿulūm al-ʾinsāniyyah*, Vol.٨, No.٣٠, ١٩٩٧.

al-Jābriyy, Muḥammad ʿābid, *Binyah al-ʿaql al-ʿarabiyy*, ١st edition, (Beirut, ١٩٨٦).

Al-Rubāʿī, ʿabd al-Qādir, *fī Tashkil al-Khiṭāb al-Naqdiyy: Muqārabāt Manhajiyyah Muʿāṣirah*, (Oman: al-ʾAhliyyah li al-Nashr wa al-Tawzīʿ ١٩٩٨).

Al-Ṣāʾigh, ʿabd al-ʾilāh, *al-Khiṭāb al-Shiʿriyy al-Ḥadāthawiyy wa al-Ṣūrah al-Fanniyyah: al-Ḥadāthah wa Taḥlīl al-Naṣṣ*, (Beirut: al-Markaz al-Thaqāfiyy al-ʿarabiyy, ١٩٩٩).

Al-Sāmirāʾiy, Fārūq, "al-Tawāzun fī al-Fikr al-Tarbawiyy al-Islāmiyy", *Abḥāth al-Yarmūk- Silsilah al-ʿulūm al-Insāniyyah wa al-Ijtimāʿiyyah*, Vol.١٣, No.٤, ١٩٩٧.

Al-Sayyid, ʿalāʾ al-Dīn Ramaḍān, "al-Buwīṭīqiyā (Fann Lughah al-Ṣiyāghah al-Shiʿriyyah)", *ʿAlāmāt fī al-Naqd*, Vol.٧, Pt.٢٨, ١٩٩٨.

Badawiyy, ʾamīn, *al-Qiṣṣah fī al-ʾadab al-Fārisiyy*, (Dār al-Nahḍah al-ʿarabiyyah,١٩٨١).

Bīdbā, *Kalīlah wa Dimnah*, trans: ʿabd Allāh Bin al-Muqaffaʿ, (Ammān: Maktabah al-Muḥtasib).

Ḥammūdah, ʿabd al-ʿazīz, *al-Marāyā al-Muqʿirah: Naḥwa Naẓariyyah Naqdiyyah ʿarabiyyah*, (Kuwait: ʿālam al-Maʿrifah, ٢٠٠١).

Ibrāhīm, ʿabd Allāh, *al-Sardiyyah al-ʿarabiyyah: Baḥth fī al-Binyah al-Sardiyyah li al-Mawrūth al-Ḥikāʾī al-ʿarabiyy*, (Beirut: al-Markaz al-Thaqāfiyy al-ʿarabiyy, ١٩٩٢).